بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الجمعة : 04/02/2011م **الشيخ الطبيب محمد خير الشعال**

سلسلة تربية الأبناء

الخطبة الرابعة: قواعد تربوية2

الحمد لله، الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبي اجتباه، وهدى ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله ربنا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلي على سيدنا محمد وعلى أله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى وأحثكم وإياي على طاعته، فنحن اليوم في دار عمل لا حساب فيها وغدا ماضون إلى دار حساب لا عمل فيها، إنه من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

ثم أستفتح بالذي هو خير:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: 6].

- قال سيدنا علي ﷺ: ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ﴾: أي علموا أنفسكم وأهليكم الخير.
- وقال مقاتل: هي أن يؤدب المسلم نفسه وأهله، فيأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر.

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **((مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ))**[1].

- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:**((مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدًا مِنْ نَحْلٍ أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ))**[2].

هذه هي الخطبة الرابعة في سلسلة تربية الأبناء.

تحدثنا لماذا هذه السلسلة، ومقدمات في تربية الأبناء، وقواعد تربوية في جزئها الأول، وعنوان خطبة اليوم:

قواعد تربوية (2)

تقوم التربية الناجحة على قواعدَ وأسسٍ تربوية مهمة جداً، والمأمول من كلِّ مربٍ مراعاتُها، فإن لم تُرْعَ القواعدُ نشأ البنيان على غير استقرار واتزان، وقد عرضت الخطبة الماضية للقاعدة الأولى في التربية وهي: رفع الحرج، وسنعرض في خطبة اليوم لقاعدتين جديدتين، وهما:

القاعدة الثانية:

(قلة التكاليف)

سبق أيها الإخوة أن علماء التشريع وجدوا أن التشريع الإسلامي قائم على أسسٍ ثلاثة سَمَّوها: أسس التشريع الإسلامي.

والمربي الناجح الحكيم هو الذي يراعي مراعاته الشريعة في أسسها وقواعدها.

- الأساس الأول: رفع الحرج.
- والأساس الثاني: قلة التكاليف.
- والأساس الثالث: التدرج في التشريع.

أما قلة التكاليف في الشرع فالمراد به أن الشريعة لم تثقل الناس بكثرة التكاليف، بكثرة الأوامر والنواهي، ولم تكلفهم رهقاً، بل قام الشرع على قلة التكاليف ودعا إليه.

فهذا رجل يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيقول: يا رسول الله، أرأيت إن شهدتُ أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصليتُ الصلوات الخمس، وأديت الزكاة، وصمت رمضان وقمته، فمن أنا؟ قال: **((من الصديقين والشهداء))**[3].

---

[1] () متفق عليه (البخاري 6618، مسلم 203)، عن معقل بن يسار ﷺ.

[2] () رواه الترمذي برقم: 1875، عن عمرو بن سعيد بن العاص.

[3] () رواه ابن حبان في صحيحه، ج8، رقم 3438، عن عمرو بن مرة الجهني ﷺ، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ((**إِذَا صَلَّتْ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ**))[1]، إنها قلة التكاليف.

بل إن رجلاً يأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطلب نصحه، فيقرأ عليه صلى الله عليه وسلم: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1)﴾ فإذا وصل إلى قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)﴾، [الزلزلة: 99/7-8]، يقول الرجل: يكفيني هذا وينصرف، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**أفلح الرويجل**))[2].

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: أوصني، ولا تُكْثِرْ عليَّ -وفي رواية أنه قال: مُرْني بأمر وأَقْلِلْه لي كَيْلا أنسى- فقال له صلى الله عليه وسلم: ((**لا تَغْضَبْ**))[3]، إنها قلة التكاليف.

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم المعلمَ المربيَ ما كان يكثر على الصحابة أو يثقل، بل كان يتخولهم بالموعظة مخافة السآمة عليهم، فعن شقيق بن سلمة ﷺ قال: ((**كَانَ عَبْدُ اللَّهِ –أي ابن مسعود– يُذَكِّرُ النَّاسَ فِي كُلِّ خَمِيسٍ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَوَدِدْتُ أَنَّكَ ذَكَّرْتَنَا كُلَّ يَوْمٍ قَالَ أَمَا إِنَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُمِلَّكُمْ وَإِنِّي أَتَخَوَّلُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَتَخَوَّلُنَا بِهَا مَخَافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا**))[4].

ومن هنا يأتي المراد بقلة التكاليف في تربية الأبناء: ألا تثقل كاهل من تعتني بتربيته بالأوامر والنواهي، كي لا ينفروا.

كَلَّفت إحدى المدرسات طالباتها في مدرسة ابتدائية بسبعةَ عشرَ واجباً منزلياً، يؤدونها خلال أيام عطلة منتصف العام، بعضُ هذه الواجبات كان كتابةَ درس مؤلفٍ من صحيفتين على دفترهم الخاص عشر مرات.

إن كَثْرَة التكاليف تُنفِّر المتلقي، وتدعوه إلى التفريط بما كُلِّف به.

تخاصم زوجان إلى رجل علمٍ يثقون به، ولما طال حديثهما معه، طلب الحَكَم من كليهما أن يرجعا إلى البيت، ويكتبَ كلاً منهما على ورقةٍ مختصراً عن الخصومة، وما يطلبه من الآخر، اختصاراً للوقت وللجدل، وضبطاً للمطلوب.

---

[1] () رواه الإمام أحمد في مسنده برقم 1573، عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ.

[2] () رواه أبو داود في سننه، برقم: 1191، عن عبد الله بن عمرو ﷺ.

[3] () رواه البخاري في صحيحه، برقم: 6205، عن أبي هريرة ﷺ.

[4] () رواه البخاري في صحيحه، برقم: 68، وعنون له بـ: باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلميتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا.

وإذا بالزوج بعد أيام يعود إلى الحكم بمصنفين كبيرين يحوي كلاً منهما قرابة ثلاثين صحيفة، ولما سأله عن هذه المصنفات، قال: إن كلَّ مصنفٍ يحوي مختصراً عن الخصومة من وجهة نظر كاتبه –الزوج والزوجة–.

ومع كلِّ مصنف بيان بالمطلوبات، فلما فتح المطلوبات فإذا بكلٍ منهما يطلب من الآخر أكثرَ من عشرة أمور.

إن كثرة التكاليف تُنَفِّر المتلقي وتدعوه إلى ترك التكليف نهائياً.

فالقاعدة التربوية الثانية: قلة التكاليف.

القاعدة الثالثة:

(التدرج في التربية)

عَرَّف العلماء التربية فقالوا: هي إنشاء المرء وإصلاحه شيئاً فشيئاً حتى يبلغ حدَّ الكمال والتمام.

فقولهم: (شيئاً فشيئاً) معناه التدرج، وهو قاعدة مهمة جداً في التربية.

والتدرج هو الأساس الثالث في التشريع الإسلامي، فالقرآن الكريم لم ينزل جملةً واحدةً، بل نزل مُفَرَّقاً –منجماً– خلال ثلاث وعشرين سنة، تنزل الآية حيناً، وتنزل الآيتان، وتنزل العَشْر، وتنزل السورة.

والأحكام الشرعية لم تُفْرَض جملةً واحدةً، بل فُرِضَت على التدريج، وربما فُرِضَ الأمر الواحد متدرجاً، فالصلاة والصوم فُرضا بالتدريج، فقد كان الرجل يصلي ركعتين في الصباح ، وركعتين في المساء، ثم شُرِعت الصلوات الخمس بأوقاتها المعروفة، وكان الناس يصومون عاشوراء، ثم فُرِضَ صومُ رمضان، والربا والخمر حُرِّما بالتدريج، فقد كان أولُ ما نزل في تحريم الخمر:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾، [سورة البقرة: 219]، يقول: إن في الخمر إثماً كبيراً، كما أن فيها منافعَ مادية وتجارية للناس

وظلَّ الناس يشربونها غير أنهم تهيئوا بعض الشيء لتركها، حتى إذا كان يوم صلى رجل من المهاجرين بأصحابه، فخلَّط في قراءته من جَرّاء شربه الخمر، فأنزل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾، [سورة النساء: 43]، فصار الناس يشربونها حتى إذا حانت الصلاة –أو قبلها بوقتٍ– امتنعوا عنها، فازداد استعدادهم لترك الخمر، فكان أن نزلت: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا

﴿ الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) ﴾، [سورة المائدة: 90]، فقال الناس: انتهينا...انتهينا، وكسروا دنان الخمر، وأراقوا شرابها.

قالت السيدة عائشة ﵂: ((**إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنْ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا..**))[1]، إنها قاعدة التدرج في التشريع، ومثلها قاعدة التدرج في التربية والإصلاح.

والمراد بالتدرج في التربية: أنك إذا أردت أن تنقل ابنك من النقطة (أ) إلى النقطة (ب) على خط مستقيم –مثلاً– أي إذا أردت أن تنقله من حالٍ لا تحبه ولا ترضاه إلى حالٍ تحبه وترضاه، وكانت النقطة (ب) بعيدةً عن (أ)، فبإمكانك تقسيم المسافة الطويلة إلى مجموعة مسافات قصيرة، فتنقله تدريجياً وعلى مراحل، نقلةٌ فنقلة، وبمجموع النَقْلات يكون قد تغيّر من حالٍ إلى حال.

فبالتدرج في الإصلاح تخفف عنه ثِقَل المهمة، وتعينه على ما تريد، فتنجح في تربيتك، وينجح في نَقلته.

حكي عن سيدنا عمر بن عبد العزيز ﵁ أن ابنه عبد الملك –وكان شاباً ورعاً تقياً كأبيه، متحفزاً للخير متوثباً إليه كسائر الشباب– قال لأبيه عندما ولي الخلافة: (يا أبتِ، مالك لا تُنْفِذ الأمور، فو الله ما أبالي لو أن القدور غَلَت بي وبك في الحق).

فقال الأب: (لا تعجل يا بني، فإن الله ذَمَّ الخمر في آيتين، وحرَّمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة، فيتركوه جملة، ويكونَ في ذا فتنة).

فالتدرج في التربية قاعدة مهمة ثالثة في قواعدَ تربوية.

والسؤال: ما المطلوب منك في هذه الخطبة؟

1- **لا تكثر على ابنك الأوامرَ والنواهي، بل راعِ قلة التكاليف.**
2- **راعِ التدرج في نَقْلِه من حالٍ غير مرضي، إلى حالٍ مرضي.**

والحمد لله رب العالمين

[1]() رواه البخاري في صحيحه، برقم: 4609.